المحبة هي معيار الإيمان والأعمال

جورج باترونوس†

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن القراءة الإنجيلية للأحد الثاني من لوقا مقتبسة من عظة الرب على الجبل. في إنجيل متى، الذي يجمع معاً كل تعاليم يسوع خلال رسالته العلنية تقريباً، يقع التركيز على الإطار العام للحياة المسيحية. وهنا في إنجيل القديس لوقا، حيث ترد الأحداث ضمن خطٍ زمني تاريخي، أي بالترتيب الذي وقعت فيه، فإن هنالك تقليداً آخر مثيراً للاهتمام. يقسم الإنجيلي لوقا العظة ويشد انتباه المؤمن إلى الفكرة المركزية في كل قسم. والفكرة المركزية في إنجيل اليوم هي كيف تُعاش المحبة. يُدرَك الإيمانُ وجوهر الأخلاق المسيحية. إن معيار الصحّة هو المحبة.

كان التركيز في الآيات السابقة من القراءة الإنجيلية على المحبة، وتحديداً تجاه الغرباء، الذين هم من عرق أو دينٍ مختلف، أولئك الذين عادةً ما نعتبرهم أعداء. إن العبارات التالية مثيرة للاهتمام للغاية: "أحبوا أعداءكم"، "أحسنوا إلى مبغضيكم"، "باركوا لاعنيكم"، "صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم"، "إذا لطمك أحدٌ على خدك الأيمن فأدِرْ له الآخر أيضاً". مَن أراد ثوبك فاترك له رداءك أيضاً. إذا قصدك أحدٌ كمستعطٍ، فلا ترفض إعطاءه شيئاً. وإذا أعطيته، فلا تستخدم العطية ضده لاحقاً.

إنَّه لنظامٌ رائع لعيش الحياة المسيحية، وتعبير مستمر عن المحبة بدون رباطاتٍ أو حدود. نموذج جديد للتصرف، وأخلاقيات جديدة لحياتنا، تأتي كثمرة ناضجة للإيمان المسيحي. إن هذه المسلكية في الحياة تتقولب خارج البنى الأخلاقية والمساومات الاجتماعية، وليست نظرةً رومانسية للحياة والعلاقات الاجتماعية. بل على العكس فإن لدينا تسامياً فوق الحقوق الشخصية وتضحيةً بالمصالح الفردية وتجاوزاً واعياً لعدوانية وشرِّ الآخرين. إننا نطوّر هذه المسلكية بمعرفةٍ وإدراكٍ تامَّين. بالتأكيد لسنا حمقى لأننا نعيش في المحبة.

يتّخذ هذا النظام السلوكي صيغةً أكثر واقعيةً في قراءة إنجيل اليوم، على أساس "القاعدة الذهبية" لدستور التصرف الأخلاقي المسيحي. يقع التركيز على المنطلق الفريد للسلوك المسيحي: كل ما أردتم أن يفعل الناس بكم افعلوه أنتم بهم، وينال هذا المنطلق الأولوية فوق جميع المبادئ الأخرى. من المؤكد أن ذلك ليس مجرد قاعدة نظرية أو مسلَّمة أخلاقية أو مفهوم أخلاقي عام، إنما مسلكيَّة حياةٍ وخلق للخبرة الروحية. ولهذا فإن هذه القاعدة ذات أولوية في هذه القراءة الإنجيلية. كيف نحلل مبدأ "القاعدة الذهبية" في حياتنا اليومية؟

فرادة الخبرة المسيحية

إن أحد أشكال "القاعدة الذهبية" للتصرف الأخلاقي مطروح في نصوص لكتاب قدماء، سواء من التقليد الديني اليهودي أو الثقافة اليونانية القديمة. والغاية من ذلك هو ضبط السلوك العشوائي وضمان احترام حقوق الآخرين. لذلك لدينا تفسيرٌ للمسلكيات والتصرفات السلبية. في اليهودية، كما نعلم، كان قانون القصاص هو العنصر السائد: "العين بالعين والسن بالسن". والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة كان محبة القريب، ولكنَّ مفهوم "القريب" هنا كان يعني أحداً من عرقك ودينك. كان الدخلاء والغرباء مرفوضين بصفتهم أعداء وخطأة، فيما يتعلق بالمعنى التاريخي للسلوك الاجتماعي والرجاء الأخروي للخلاص. تقولب هذا السلوك بفعلِ نظرةٍ دينية وعرقية حادة.

شيء من هذا القبيل كان صحيحاً أيضاً في العالم الوثني والهلنستي. إن فكرة كون أي شخصٍ غير يوناني بربرياً حصرت منافع التعليم والثقافة بالأصدقاء الأخصاء والمواطنين، واستبعدت العبيد والغرباء. بيد أن المحبة المسيحية توسع الآفاق وتتخلص من جميع حواجز التفرقة الأخلاقية أو العرقية أو الثقافية. تدعو المسيحية إلى المحبة كقاعدة للحياة للجميع وتجاه الجميع: كَمَا تُرِيدُونَ أَنْ يَفْعَلَ النَّاسُ بِكُمُ افْعَلُوا أَنْتُمْ أَيْضًا بِهِمْ هكَذَا. لا تصاغ النظرة المسيحية إلى السلوك البشري عبر الإرادة والنوايا والميول، بل عبر الفعل والأعمال والتصرف.

سمة مميزة أخرى هي نكران الذات. يعتمد الدستور التقليدي للتصرف في العلاقات الاجتماعية على المصلحة الشخصية المتبادلة، والتي تعني في أفضل الأحوال: "أحبُّ مَن يحبني"، "حكّلي لحكّلك"، أو "أثق بمن يثق بي". انطلاقاً من هذا الموقف فإني أتوقع منفعة شخصية، ولهذا لدي ما أقدمه. تتجاوز المحبة المسيحية منطق المنفعة المتبادلة في العلاقات الإنسانية. إنها تعمل على أساس "منطقٍ" آخر، وهو منطق العطاء والمحبة ببساطة، والذي يجده بعض الناس منطقاً سخيفاً. إذا كانت محبتنا منحصرةً في أنفسنا وفي أصدقائنا، فإننا لا نختلف بأي شكل من الأشكال عن غير المسيحيين، بما أنه "حتى الخطأة يفعلون هذا". إن وصية محبة الأعداء لا تفسر نفسها بنفسها بالطبع. إننا نميل بشكلٍ طبيعي إلى الدفاع عن أنفسنا ونتجنب بشكلٍ منتظمٍ أيةً علاقةٍ مع الخصوم والأعداء. إن محبة الأعداء التي تدعونا إليها رسالة الإنجيل هي تجرؤ ومخاطرة حقيقية حتى بحياتنا. لذا فإنها ليست مستوحاة من فكرة ساذجة عن الحياة، بل تعبير عن موقف مختلف ويمكن تحقيقها فقط في إطار عمل نعمة الله. إن هذه المحبة "ليست من هذا العالم".

لدينا هنا تسامٍ حقيقي فوق الأنا. ويجب القول بأنه فقط عبر مخاطرة فضيلة المحبة هذه يصبح الناس "كاملين" ويتمجدون. إذا أردت أن تصبح "ابناً* للعلي"، فإن السبيل الوحيد هو المحبة. وبما أن الناس الذين يحبون يتمثلون جوهرياً بالمسيح، "الذي أحبنا حتى الموت"، لذلك فإنهم في نفس الوقت يصيرون "أبناء الله". الله محبة، وفي نفسه الوقت هو "طريق" الحياة والحقيقة. يقول القديس بولس بأننا صَادِقِينَ فِي الْمَحَبَّةِ، نسلك طريق الكمال. تلخص المحبة كل شيء: الفرائض الدينية والترجيات الأخروية. المحبة أعظم من الإيمان والرجاء. إنها أعظم كل الفضائل: "وأعظمهن المحبة". المحبة هي خاصية الحياة وهي تحدد علاقتنا مع الناس الآخرين ومع الله.

* كلمة "ابن" هنا تعني من يتمتع بكامل الميراث لحقه الطبيعي كابنٍ لله، وليس النسل الذكوري.

† أستاذ فخري في اللاهوت في جامعة أثينا

Source: Georges Patronos. Love is the Criterion of Faith and Works (2nd Sunday of Luke). Pemptousia. https://pemptousia.com/2023/10/love-is-the-criterion-of-faith-and-works-2nd-sunday-of-luke/